

الرحلات الجزائرية إلى فرنسا خلال القرن التاسع عشر رحلة ابن صيام والرحلة القادية في مدح

فرنسا وتبصرة البادية انموذجا

Algerian trips to France in the nineteenth century AD Journey of ben Siam and Journey of ben al-kady Model

د. عبد الحميد عومري (*)

abd.oumri@univ-adrar.edu.dz ، (الجزائر) ، جامعة أدرار

تاريخ الاستلام: 2023/07/10 تاريخ القبول: 2023/10/26 تاريخ النشر: 2024/01/25

استخدم الاستعمار الفرنسي في الجزائر عدّة أساليب لإخضاع الشعب الجزائري منذ دخوله للجزائر سنة 1830، واتبع سياسيات متعددة في مختلف المجالات، ومنها الجانب الفكري والثقافي، خصوصا السياسة التعليمية وأهدافها. وأثناء تصفحي للكثير من المصادر في هذا المجال استوقفتني موضوع مهم هو: دعوة الاستعمار الفرنسي العلماء والوجهاء للسفر إلى فرنسا من أجل حضور مناسبات والتأثر بذلك التقدم، ثم كتابة تلك الرحلة باللغة العربية وطبعها تحت نفقة إدارة الاحتلال ونشرها بين الجزائريين لكي يتأثروا ويقتنعوا أن رسالة فرنسا في الجزائر هي نقل الجزائريين إلى مستوى الحضارة الأوروبية وهو ما نلمسه في رحلتي ابن صيام والرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصرة البادية، ونهدف من خلال هذا المقال إلى تسليط الضوء على تلك الرحلات وأبعادها في رسم صورة فرنسا لدى الجزائريين.

الملخص

الكلمات الدالة: رحلة؛ ابن صيام؛ ابن القاضي؛ الجزائر؛ الاستعمار.

Abstract: French colonialism in Algeria used several methods to subjugate the Algerian people since its entry into Algeria in 1830, and followed various policies in various fields, including the intellectual and cultural aspects, especially the educational policy and its objectives. During the course of my reading of many sources in this field, I was stopped by an important topic: the French colonialists invited scholars and dignitaries to travel to France to attend the celebrations and to see the progress that France had achieved, and then write that journey in arabic and printed from the funds of the colonial administration. The aim of this study is to read and analyze the journey of al- Syamiya, and the journey al-kadya, influenced by Western civilization.

* المؤلف المرسل.

Keywords: Journey; colonialism; Algeria; Ben Qadi; Ben Siyam.

مقدمة:

إذا كانت الحركة الاستعمارية سلبت الحرية للشعوب المستعمرة واستحوذت على ممتلكاتها، فقد بينت الفارق العلمي والعسكري بين المستعمر والمستعمر، وسمحت لبعض الفئات من شعوب المستعمرات الاحتكاك بأوروبا والتعرف عليها، بل تجاوز الوضع من الخلاف والصراع إلى التأثير والتأثر والذي رسمته تلك الرحلات الجزائرية نحو فرنسا خلال القرن التاسع عشر بداية برحلة عثمان بن حمدان خوجة وابن العنابي وصولا إلى ابن صيام وابن القاضي الذي جعل عنوان دقيقا لمضمون رحلته وهو الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصرة البادية، والتي تبين نسبة التأثير بفرنسا ويدعو أبناء جلدته لتغيير نظرهم لفرنسا لما عليه من التقدم والحضارة، والدعوة إلى ضرورة التعليم والتعلم ولهذا إشكالية هذا المقال تتمحور حول ما هي مظاهر التأثير والتأثر بين الجزائريين وفرنسا من خلال الرحلات الجزائرية خلال القرن التاسع عشر؟ مسلطا الضوء على رحلتين لم يتم الإشارة إليهما إلا نادرا في الكتابات التاريخية.

1-الرحلات الجزائرية نحو فرنسا خلال القرن التاسع عشر:

1-1- دوافعها:

تعددت دوافع الرحلات الجزائرية نحو فرنسا خلال القرن التاسع عشر، وفي مقدمتها اكتشاف الطرف الآخر (أي فرنسا والفرنسيين)، وحال التطور الذي يعيشه، ونقل أخبارهم إلى الجزائر عن طريق الرحالة لكي يتأثر بها الجزائريون؛ حيث ((تقول المصادر الفرنسية عندما يسمع الأهالي الحكايات والقصص العجيبة عن مشاهدات الأعيان في فرنسا فإن غيرهم من العرب سيطلبون الزيارة كذلك للاطلاع على هذا البلد الذي انتصر جيشه وحضارته عليهم))⁽¹⁾، ويضيف أبو القاسم سعد الله ((أما الأثر الذي ستحدثه الزيارات على عقول الأطفال الجزائريين أبناء المخلصين لفرنسا، فالمصدر (أي حسب ما جاء في السجل 1838) يقول أنه سيكون لقصصهم تأثير على الآخرين الذين لم يزوروا، وسيطلبون بدورهم الزيارة،

وهكذا تسرى العدوى ويصبح الحج إلى فرنسا بدل مكة وتتغير العقليات ويحدث التقارب في طريق الاندماج المنشود⁽²⁾.

ومن دوافع رحلات الجزائريين إلى فرنسا هو: حضور بعض التظاهرات في فرنسا كعرض باريس؛ فقد ((كانت السلطات الفرنسية في الجزائر تختار عينات في كل سنة لحضور المعرض الدولي بباريس، ومن الذين حضروا المعرض سنة 1855 اثنان من أعيان إقليم وهران، وهما القاضي مُجد بلقايد قاضي وهران، والطاهر بن المحفوظي))⁽³⁾، وبعض الرحلات الأخرى كان هدفها الحضور لاستقبال قيصر روسيا؛ ففي سنة 1896 ((حضرت قوة عسكرية جزائرية على رأسها كوكبة من الأجواد، بحضور حفل استقبال الإسكندر الثالث قيصر روسيا ومروا أمام القصر فكان الرؤساء الجزائريون يحملون المحفل القيصري بألوان برانيسهم الخفاقة الأجنحة وأشعة أسلحتهم المحلاة حسب وصف جريدة المبشر))⁽⁴⁾.

أما ابن علي الشريف فكان هدفه الأساسي من الرحلة هو نقل ما وصلت إليه فرنسا والفرنسيون من العلوم، وبالتالي ترغيب أبناء إخوانه الجزائريين للتعلّم في المدارس الفرنسية، وبالتالي فدافع الرحلة هو نشرها بين الجزائريين حتى يتأثروا بحال التقدم التي وصلت إليه فرنسا، ومن أهدافه كذلك مساعدة فرنسا على تحقيق الأمن والاستقرار في الجزائر وإنهاء الثورات الشعبية التي سماها نار الفتنة فيقول: ((ويجعلنا من الباذلين جهدهم في معونة هذه الدولة الفرنسية بصدق نية وحسن عمل، حتى أكون ممن يسعى في خير البلاد والعباد، ومطفى نار الفتنة بصلاح وسداد، فإن العافية أهم كل مهم، وبها يتم العمل وتزداد الخيرات والنعم، والعامّة تقول العافية تربي الأولاد والأفراد، وتنفي الضرّ والعناد))⁽⁵⁾.

1-2: أهم الرحلات

اعتادت فرنسا على إرسال أعيان من الجزائر لحضور تظاهرات بباريس، ومع اشتهارها بينهم ازدادت المنافسة حولها خاصة أن الرحلة الأوائل ذكروا عجائب وغرائب من التطور الذي عرفه الفرنسيون ولم يسمع عنه الجزائريون، غير أن قليلا منهم من سجّل رحلته، وإن كان هناك تدوينات فما وصلنا وهو متداول بيننا خلال الفترة المدروسة: - رحلة ابن صيام - رحلة ابن

علي الشريف - الرحلة القادية - رحلة ابن الفكون في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

-رحلة مُحمَّد السعيد بن علي الشريف إلى باريس 1852: وقد تزامنت هذه الرحلة مع رحلة سليمان ابن الصيام، واشتركا في الدوافع نفسها والأسباب، وابن علي الشريف ينتسب للأشراف الأدارسة، وترجع أسرته إلى عبدالسلام بن مشيش في القنيطرة بالمغرب، وقد اشتهرت هذه العائلة لزوايتهم الكبيرة في شلالة وزاوية آقبو، ولد عام 1820 في يلولة، بدأ رحلته بقوله: ((الحمد لله الذي جعل اللسان عنوان عقل الإنسان وآلة تطهر سرّ الجنان بفصيح العبارة وصریح البيان... لما رقم اسمي في جملة المسافرين إلى دار الملك بباريس أشار عليّ بعض الأمراء المحبين بتسطير ما نشاهده ببر فرنسا، وما نعاينه من الأمور القريبة والأشياء العجيبة، فأجبتة لمراده خشية الملام، غير أنني ألفت شيئا يعجز اللسان عن إدراكه مع قصر فهمنا))⁽⁶⁾.

وقد مدح ابن الشريف فرنسا في رحلته مدحا: ((وتأمل تأمل ذي اعتبار، تجد سبب نصرة الدولة الفرنسية العدل... فقد سئل حكيم الإسكندر عن العدل والشجاعة أيهما أبلغ فقال إذا استعملت العدل استغنيت عن الشجاعة، لأن عدل السلطان أنفع من خصب الزمان، وهؤلاء الفرنسيون جمعوا ما بينهما لكمال عقولهم وتديبرهم للعواقب، وحسن سياستهم، وأهم أخذوا من رأي الحكماء، واقتبسوا من أخلاق الملوك القدماء، ما يصلحون به الرعية ويسوسون به أمور المملكة))⁽⁷⁾، ويقول في موضع آخر: ((وبالجملة فالذي أقامته الدولة الفرنسية في مدة سنين يسيرة ببلد الجزائر وعمالاتها من بناء وقناطر وثغور وسدود أودية ومطاحن وأماكن ونحو ذلك لا يقومه غيره في مائة سنة والله أعلم))⁽⁸⁾.

ولم يتعرض ابن علي الشريف في بداية رحلته إلى ما شاهده وعايينه، بل شرع في الحديث عن العلم وأصنافه وفضله، حتى يؤكد على ضرورة إرسال الجزائريين أبناءهم للمدارس الفرنسية وأنّ ذلك لا يخرجهم من الدين وهو الهدف الذي كتبت من أجله هذه الرحلة وغيرها من الرحلات ((وحيث ثبت فضل العلم وذو الجهل، فكيف تؤثر مقالة عند الجهال الذين يزعمون الخروج عن دينهم إذا تعلم صبيانهم في المدارس التي أعدها البايك لهم وخصوصا

اللسان الفرنسي))⁽⁹⁾، ويصف ابن الشريف سكان باريس بقوله: ((واعلم أن أهل باريس مختصون من بين كثير من أهل فرنسا بذكاء العقل، ودقة الفهم، ودليل ذلك أنهم لا يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة كما رأينا بغيرها، ولا يقلدون أصلا وإنما هم يحبون معرفة الشيء بأصله والاستدلال عليه بنفسه))⁽¹⁰⁾، وكان لابن الشريف فرصة ((لمقارنة الحياة والطبائع عند الجزائريين والفرنسيين، فالجزائريون كسلاء والفرنسيون نشطاء، وهؤلاء متقدمون وأولئك متخلفون))⁽¹¹⁾.

إن أهمية رحلة ابن علي الشريف تظهر من كونها تعكس رأي شاب في أوائل عهده بالتأثر الفرنسي، وهو من المرابطين المتنافسين مع الأجواد، وقد رأينا أنه وقف إلى صالح الأخذ من الفرنسيين أنواعا من تمدنهم، ولكنه لم يدرك أن ذلك غير متاح للجميع وأن هناك ثمنا غاليا يدفعه الجزائري ليصل إلى ذلك الهدف⁽¹²⁾.

-رحلة سي محمد بن الحسن بن الشيخ الإسلام المعروف بـ سيدي الحاج محمد الفكون مع وفد من قسنطينة إلى باريس: وهو من مواليد 1867 بقسنطينة، حفظ القرآن الكريم في زاوية أسرته بعدها واصل تعليمه في قراءة كتب المؤلفين الكبار، وفي نفس الوقت تعلم وأجاد اللغة الفرنسية⁽¹³⁾، وقد وصف في هذه الرحلة ما قابلوا من المسؤولين والشخصيات وحضروا حفل استقبال القيصر الروسي سنة 1901.

1-3-1 نتائجها وتأثيراتها

1-3-1 الدعوة لإنشاء الكوليج العربي

ومن بين نتائج تلك الرحلات هو الدعوة إلى إنشاء كوليج (معهد) عربي فرنسي بباريس، وتكون مهمته استقبال الأعيان، وتعليم أبناء المخلصين لفرنسا، وإبراز الكرم الفرنسي في مختلف المجالات، حتى يصبح المعهد مشتلة فكرية للتأثير الفرنسي في الجزائر، واقترحوا أيضا أن تنشأ في المعهد مدرسة للترجمة بالعربية الدارجة لأبناء الفرنسيين، وبذلك يحدث الاختلاط بين الأطفال أولا في فرنسا ثم بين الكبار في الجزائر، أما الأطفال الجزائريون فيأتون ويدرسون دراسة خاصة ويكونون تحت مراقبة شديدة ثم يرجعون إلى أهلهم تحت المراقبة نفسها⁽¹⁴⁾، وقد

أصدر نابليون الثالث مرسوم لتجسيد الفكرة غير أنها لم تنجح كما كان متوقعا بسبب رفض الجزائريين إرسال أبنائهم إلى فرنسا والابتعاد عنهم.

1-3-2 تكوين نخب جزائرية مفرنسة

سعت الإدارة الفرنسية منذ البداية إلى تكوين نخب مثقفة بالثقافة الفرنسية تخدم مصالحها؛ حيث تكفلت بتعليم أبناء بعض الأعيان في فرنسا سنة 1844 وعددهم ثمانية ((لقد أحاطتهم بعناية كبيرة فخصصت لهم ميزانية بمبلغ عشرين ألف فرنك - 2500 فرنك عن كل طفل - للصرف عنهم، فغاية إدارة الاحتلال من وراء احتضانها لهذه المجموعة من الأطفال هي إعطاء صورة مشرفة عن فرنسا عندما يعودون إلى بلادهم))⁽¹⁵⁾، وفي تقرير أعدته مصالح الولاية العامة حول موضوع التعليم من نفس السنة جاء فيه: ((أنه الآن وقد استتب الأمر لفرنسا بخضوع القبائل التي كانت تدين بالولاء للأمير عبدالقادر يجب التفكير في المستقبل، فما دامت فرنسا قد قررت الاستقرار في البلاد فإنه يتحتم عليها تجاوز مرحلة التسيير اليومي للأمور وفق مستجداتها، والقيام منذ الآن بغرس أشجار شابة والتي تستوجب انتظار عدة سنوات قبل أن تعطي ثمارها، فمن يريد محصولا وافرا عليه أن ينتقي بذورا جيدة ويحسن رعايتها))⁽¹⁶⁾، ومعنى هذا أن تكوين النخب ستساعد في إدارة البلاد وأن تكون وسيطة بين الاستعمار والجزائر وكبديل عن الأغوات الوساطة التقليدية، لأن النخبة ستساعد في تغيير الثقافة والعادات.

يتحدث صاحب كتاب أوضح الدلائل في إصلاح الزوايا ببلاد القبائل عن رغبة السياسيين الفرنسيين في تكوين نخبة تمجد فرنسا لكنهم فشلوا في ذلك فيقول: "ذهب رجال السياسة مذاهب عديدة، وتطرت أفكارهم طرقا عديدة حرصا على الوصول إلى ما به إفهام القبائل وكشف الغطاء عن أبصارهم وإزالة الريب عن قلوبهم حتى يعاينوا ما لفرنسا عليهم من المزايا والمكازم معاينة تستلزم ارتسام ذلك في مرآة عقولهم، لكن لن تجد واحد في اجتهادهم قد أصاب"⁽¹⁷⁾، ويرد combes على المنتقدين للمدارس الإسلامية الثلاثة، والطلبة المتخرجين منها: "فإذا أغلقنا هذه المدارس فمن أين نأتي بموظفي القضاء الإسلامي والشعائر الدينية،

فرجال الدين باقون مادام الدين باق، لقد التزمنا وأعطينا وعدا باحترامه... فبفضل هذه المدارس يكون بين أيدينا وتحت تصرفنا رجال الدين من صنعنا، فإذا أسقطنا هذه الورقة من أيدينا سنجد أنفسنا مضطرين الاستعانة بمن نصنعهم بدل غيرهم⁽¹⁸⁾، فمهمة تلك المدارس تكوين النخب الدينية التي ستوظف في المساجد وبالتالي سيطرة الاستعمار على المؤسسات الدينية.

نشر اللغة الفرنسية عنصر ضروري في تكوين النخبة؛ فتصبح اللغة الرسمية في حديثهم وكتاباتهم، كما يساعدهم في إدماجهم وفرنستهم ((كان تعليم الفرنسية يتجاوب مع هدف مزدوج أثناء الحقبة الاستعمارية؛ وهو: تكوين "نخبة مثقفة" من الشرائح المميزة للشعب الجزائري حيث تكون وظيفتها المساهمة في الإدارة الاستعمارية، ثم فرنسة هذه النخبة ودمجها "بقيم الحضارة الفرنسية))⁽¹⁹⁾، والأكثر من ذلك تغيير نظرة الجزائريين للغة، فتصبح نظرهم أنّ تعلم اللغة الفرنسية تقدم، وتعليم اللغة العربية تخلف.

إن صورة النخبة في الفكر الاستعماري جاءت في مقدمة برنامج التعليم لسنة 1898، إذ أن غاية التعليم هو إعداد أبناء الأهالي لأن يكونوا "رجالا ذوي أخلاق حميدة متفتحين ومتبصرين مستعدين للاقتراب منا بواسطة استعمال لغتنا، يدركون مدى التقدم الذي سيحصلون عليه لتحسين أحوالهم المعيشية، ونظافتهم وطرقهم في الزراعة والصناعة وفي معاملتهم التجارية"⁽²⁰⁾، لقد صرح مدير الدراسات بأن: ((الهدف من تعليم الأهالي هو أن نجعل منهم رجالا يتميزون بالنزاهة وبعقول مستنيرة وندركهم على الاحتياط للمستقبل، وعلى حب العمل ليصبحوا على أتم استعداد للتقارب معنا واستعمال لغتنا ومعاينة الرقي الذي نعرض عليهم المساهمة فيه لتحسين أوضاعهم وظروفهم الصحية وممارستهم الفلاحية وأشغالهم الصناعية))⁽²¹⁾، وصرح جوناك أمام المجلس الأعلى بتاريخ 17 جوان 1910: ((إن المدرسة الابتدائية التي هي في فرنسا حجر الزاوية في هيكل الجمهورية، تشكل في الجزائر حجر الأساس في عملية إرساء هيمنتنا))⁽²²⁾، ويكون ذلك عن إنشاء نخب موالية للاستعمار.

مهمة هذه النخبة هي تجسيد التبعية الفكرية للاستعمار والخضوع له "إن الهدف الذي يرمى إليه الاستعمار... هو تكوين نخبة مزيفة من المثقفين مقطوعة عن الجماهير الشعبية،

بحيث يشعر أولئك المتقفون بأنهم غرباء بين ذويهم، فتقطع صلتهم بأبناء البلاد، ويتنكرون للتقاليد، ويتشبهون بأسياهم، ويصابون بما سماه جول غوتي Jules Goutie البوفارية العقائدية وهو نوع من التبعية الفكرية، إذ يحاولون دائما أن يحتدوا حذوا الأجنبي وأن يتقمصوا شخصية الأجنبي⁽²³⁾ غير أن المدرسة المستوردة لخدمة بعض المشاريع المريبة قد فشلت فشلا ذريعا، فهدفها قبل كل شيء مساعدة الأهالي على الاندماج في المخطط الاستعماري الكبير، وإقناعهم أن ذلك في صالحهم⁽²⁴⁾، لأن من والى الاستعمار وطالب بالإدماج تراجع عن ذلك وخير دليل على ذلك مسيرة فرحات عباس.

ونقدم إحصائيات عن عدد المتحصلين على شهادات في المدارس الفرنسية، وهم أمل فرنسا في تكوين نخب مولية لها؛ فعدد الشهادات الابتدائية التي أحرزها الأهالي من سنة 1883 إلى 1913 كما يلي: 4.991 شهادة في التعليم الابتدائي الخاص بالأهالي، و2.614 شهادة في التعليم الابتدائي العادي؛ أي ما مجموعه 7.605 شهادة⁽²⁵⁾، لكن أغلب من تحصلوا على هذه الشهادات من أجل التوظيف وتحسين الظروف المادية والاجتماعية، والبعض من واصل دراسته أصبح قلما يدافع عن فرنسا وحضارتها ويطالب بتطبيقها في الجزائر وإدماج الجزائريين.

ونختم هذا العنصر بما قاله أحمد طالب الإبراهيمي عن السياسة الفرنسية في تكوين النخب "وقد أخذ المستعمر بعد أن شوه الصورة الراسخة في الأذهان عن ماضي بلادنا، وبعد أن أطفأ في قلب الإنسان الجزائري جدوة الاعتزاز بقيمته كإنسان والمبادئ التي يؤمن بها، أخذ المستعمر بعد ذلك يلقنه في المدرسة الفرنسية عادات جديدة في التفكير، والسلوك، وقد كتب أحدهم من ذوي النظريات الخاصة في التعليم الفرنسي، كلمة صريحة في هذا الموضوع فقال: إن أحسن وسيلة لتقييد الشعوب البدائية في مستعمراتنا، وجعلهم أكثر ولاء وأخلص لخدمتهم لمشاريعنا هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا، فالمقصود باختصار هو أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف عقولهم وحسبما نريد"⁽²⁶⁾، وهو تصريح واضح من أحد منظري

الاستعمار في تكوين نخب تدافع عن مشاريعها الاستعمارية، لكن هذا الهدف لم يتحقق كما أراد الاستعمار بسبب قلة استجابة للسياسة التعليمية الفرنسية من الجزائريين.

2-رحلة ابن صيام:

1-2 التعريف بصاحب الرحلة ابن صيام:

هو سليمان بن الصيام⁽²⁷⁾ من مواليد مليانة ومن المعتقد أن أباه كان من أعيان مليانة، لم نعرف تاريخ ميلاده ولا المكان الذي تلقى فيه تعليمه إلا أنه يقال بأنه كان من الذين سهّلوا التوغل الفرنسي في المنطقة، وقد عيّنه آغا، وهذا ما يدل على أن عائلته كانت مرموقة في المنطقة⁽²⁸⁾، ولآه الفرنسيون آغا منذ نهاية المقاومة تحت لواء الأمير عبدالقادر، وابن صيام من الأغنياء والمتقنين، ومن الأجواد أيضا، ولعبت أسرته أدوارا في السياسة العامة، فقد كان أحمد بن صيام رئيسا للمكتب الخيري ثم الجمعية الخيرية بالعاصمة، وحين وقعت ثورة أولاد سيدي الشيخ 1864 أرسل سليمان بن صيام وغيره من رؤساء العرب بيانا إلى نابليون الثالث يستنكرونها ويعلنون الولاء لفرنسا⁽²⁹⁾.

2-2 مضمون الرحلة الصيامية:

بدأ ابن صيام رحلته بقوله: ((نحمد الله حمد معترف بحقه ونشكره على فضله ورفقه الذي جعل لنا الأرض ذلولا نمشي في مناكبها ونأكل من رزقه وسخر لنا الفلك لنجري في البحر بأمره ووقفه ونستوهب للمقام السلطاني النابليوني أعزه الله فخرا يتلى بالغرب المعمور وشرقا))⁽³⁰⁾، ويلاحظ من خلال هذه المقدمة أنه لم يصل على الرسول ﷺ كما يفعل علماء المسلمين في بداية حديثهم أو تأليفهم، فأقرن اسم السلطان نابليون بحمد الله عز وجل، واستثنى رسول الله ﷺ.

ويقول سليمان بن صيام عن سبب خطّه لرحلته ((لما سبق في سابق علمه تعالى أني أمشي لرؤيا (كذا) أرض الشمال، ذات المحاسن العديدة والكمال، أمرني من يجب عليّ امتثال أمره، وهو والي قطر دائرة الجزائر وقطبه، صاحب الرأي السديد والجود... راندون... فامتثلت أمره السعيد... وركبت من مليانة دار السكنى إلى الجزائر))⁽³¹⁾، وقد علّق سيف الإسلام الزبير

عن الرحلة الصيامية؛ حيث قال عنها أنه جمع فيها بين أسلوبين هما منهج الرحالة القدماء والتقارير الصحفية المعاصرة: ((وقد جمع أسلوبه في العرض بين أسلوب الرحالة القديم وأسلوب اليرورتاج المعاصر... يستعرض لك الرحلة مرحلة مرحلة منطلقا من مقر سكنها إلى العاصمة ثم يسرح في آفاق البحر، الذي ركب أمواجه وينتقل إلى كروسة الدخان... فوصفها وصفا دقيقا من آلتها إلى الفحم الحجري إلى قضبان الحديد التي تسير فوقها، إلى المغارات التي حفرت تحت الجبال تسهيلا لشق طريقها))⁽³²⁾.

أول مدينة فرنسية حطّ بها ابن صيام في رحلته هي "سيط" التي يقول عنها: ((ودخلنا مدينة سيط عشية السابع والعشرين من أبريل وبتنا بها ليلتنا، ولم نتمكن من رؤية ما احتوت عليه من المحاسن لسفرنا منها غداة دخولنا قاصدين مدينة مونبليي في كروسة الدخان))⁽³³⁾، التي وصفها وصفا دقيقا وسنشير إليها في مظاهر تأثره بالحضارة الفرنسية.

ثم اتجهت الرحلة من مونبليي إلى أفينون ((سافرنا من البلدة المذكورة في 29 يوما من أبريل إلى بلدة تسمى أفينون في كروسة الدخان فوق طريق الحديد دخلناها في يومنا وأرأينا بها ما يستغرب من البناء المحكم العجيب فيها دار معدة لاجتماع الباباوات وأهل العلم في الدين المسيحي فيا لها من دار قد فاقت ما فيها من الترخيص بالصخور والصوّر حتى تحيّر فيها العقول))⁽³⁴⁾، ثم انتقل صاحب الرحلة من مدينة أفينون إلى ليون عن طريق مدينة فلانص، وقد وصل إلى ليون في اليوم الثاني من ماي التي يقول عنها: ((...دخلنا فوجدناها من أعظم المدن وأجودها وفي الحقيقة هي ثاني كرسي دولة فرنسا مشتملة على منارة ومقاعد وأشجار وأزهار وتغريدات طيور تغنيك عن سماع الأوتار في وسطها واد عليه فئاظير من حديد لم تر العيون مثلها ولا سمعت الآذان بشبيها... وأرأينا بهذه المدينة محكمة الشرع نقول هي دار في غاية ما يمكن من الكبر والعلو مع التشييد في البناء والرفاهية كسوارى الرخام الفخمة، وبالاختصار لو كانت هذه الدار في موضع وحدها يظن ناظرها أنها قرية))⁽³⁵⁾.

خرج ابن صيام من ليون بعدما وصفها ووصف أهلها بالعمل رغم كثرتهم فلا يوجد من لا يشتغل، واتجه نحو العاصمة الفرنسية باريس عبر بلدة شلوا والتي يقول عنها: ((ففي يومنا

دخلنا مدينة باريس وهو اليوم الرابع من ماي فلما رأيتها وجدتها أحسن مما وصفها الواصفون ولا يمكن لشخص أن يستوعب محاسنها، ولو أقام السنين... فجعلت أسرح نظري على شكل هذه المدينة العجيب ووضعتها الغريب وأمعن النظر في سكانها من سلاطين ونحوهم وفي أنهارها وقناطرها وبساتينها وأشجارها ومياهها العذبة ونقاء هوائها والسؤال عن خزائن الكتب المنعوتة المختلفة ألسنتها وأجناسها))⁽³⁶⁾، وقد أخذت وصفا مختصرا للمدن التي مرّ بها، أما الرحلة فقط اشتملت على أوصاف ومواضيع عديدة سأشير إلى بعضها في مظاهر التأثير.

2-3 مظاهر تأثير ابن صيham بالحضارة الفرنسية

عندما طالعت رحلة سليمان ابن صيham، وجدته متأثر كثيرا بما شاهدته وعايته في رحلته إلى فرنسا، وما شاهدته من تطوّر، وسنجد مظاهر تأثيره بالحضارة الفرنسية في العناصر الآتية بذكر العنصر والعبارة التي تدل عليه:

- اعتماد التقويم المسيحي بدل التقويم الهجري فيقول: ((وركبت من مليانة دار السكنى إلى الجزائر الغرة دخلتها حماها الله يوم 23 من أبريل سنة اثنين وخمسين وثمانية عشر مئة وتاريخنا في هذا الكتاب كله التاريخ المسيحي))⁽³⁷⁾.

- تأثره بوسائل النقل المتطورة؛ فقد وصف القطار والسكة الحديدية وصفا دقيقا منبها بذلك: ((جعلوا (أي الفرنسيون) شرائط من حديد من أول الطريق إلى آخرها في غاية التمكن بمسامر من حديد مع استوائها تسير الكروسة فوق تلك الشرائط، وذلك اختراع عظيم... وذلك من أغرب ما يكون مع استواء الطريق ووزنها))⁽³⁸⁾، ويعطينا سرعة وسيلة النقل تلك التي وجدها في فرنسا وقارنها بالراكب فوق الدابة، وكأنه يعطينا وجه مقارنة بين ما وصلت إليه فرنسا وما هي عليه الجزائر فيقول: ((وفي رجوعنا من مدينة باريس مررنا تحت جبل كذلك في كروسة الدخان ستة دقائق مع خفتها وسرعة سيرها لأنها كانت تمر فيها كالبرق الخاطف وأما الراكب فوق الدابة لو دخل هذه الثقبه يسير تحت الجبل مدّة ساعة ونصف))⁽³⁹⁾، ويقول ابن صيham في نهاية الحديث عنها: ((وتلك الكروسة تقود كرايس (عربات) عديدة تنيف على الستين في كل

واحدة نحو ستة عشر نفر بدون خيل ولا واسطة ما عدا الدخان هو المدير لتلك الرودات (العجلات) وذلك من أعجب ما رأينا وليس الخبز كالمعينة⁽⁴⁰⁾.

-التأثر بالهندسة المعمارية لديار العلم والدين: عندما كان يتحدث صاحب الرحلة عن مدينة أفنيون ((دخلناها في يومنا ورأينا بها ما يستغرب من البناء المحكم العجيب فيها دار معدة لاجتماع الباباصات وأهل العلم في الدين المسيحي فيا لها من دار فاقت ما فيها من الترخيص بالصخور والصّور حتى تحيّر فيها العقول))⁽⁴¹⁾ ، وفي حديثه عن مدينة ليون يقول: ((استقبلنا أهلها أحسن استقبال وفرحوا بنا كلهم منهم من فرح بلسان المقال وآخرون بلسان الحال ثم مشوا بنا إلى كنيسة وجدناها من أعظم الكنائس وأجودها مع الضخامة والتشييد في البناء الغريب والرفاهية))⁽⁴²⁾.

-إعجاب سليمان ابن صيَّام بالمتاحف: وقد صادف صاحب الرحلة متحف بمدينة ليون فيقول عنه: ((ورأينا بهذه المدينة دارا يسمونها دار التصاوير مليئة بالتصاوير المنحوتة من الرخام والمرمر الجيد وتصاوير أخرى في حيطان تلك الدار بحسن الصناعة التي لا فرق بينها وبين الآدمي إلا بعدم الكلام حتى أنك إذا حققت النظر في الصورة التي في الجدار تراها تتبعك بنظرها فيا لها من صنعة غريبة... ورأينا بهذه الدار إنسانا ميتا موضوعا في صندوق من زجاج قد يبس جلده على عظمه مع بقاء شعر رأسه ولحيته وبقاء أسنانه على حالها، سألنا عنه فأخبرونا أنهم أتوا به من بلاد مصر ووجدوه في مضجع الأولين ومنذ موته إلى اليوم ثلاثة آلاف سنة))⁽⁴³⁾.

-التأثر بما وصل إليه الفرنسيون باستخدام وسائل الاتصال السلكية: ((وفي مدّة سفرنا رأيت بجانب الطريق ما يقارب ستة خيوط من سلك الحديد أرق من الخنصر ممدودة فوق الأرض في ارتفاع نحو ذراعين وهي في بعض الجهات محمولة فوق أعمدة من خشب سألت عنها فأخبرت أن تلك الخيوط طرفها في باريس والطرف الآخر بمدينة ليون يبعثون بواسطتها الخبز من باريس إلى ليون ومن ليون إلى باريس في مدّة طرفة عين بل يحادث الشخص في باريس جلسه في ليون مع بعد المسافة بينهما... ولم ندر كيف يصنعون لأننا لم نر لها مثل حركات السنيال الذي عندنا في بلاد الجزائر، وهذا من أغرب ما رأيت))⁽⁴⁴⁾.

- إقامة العدل وانتشار الأمن: ((حتى اشتهر العدل في برارهم وبحارهم وقد أخبرني بعض الأصدقاء وقال لي لو عزمت امرأة على السفر في البر أو في النهر راكبة أو راجلة تقطع المسافة من شرق البلاد إلى غربها من غير معارض ولا لص وإن امتلأت حقائبها ذهباً وياقوتاً ولا يخظر ببال شخص تجريد الناس في الطريق بل يعم الأمن والأمان والعافية))⁽⁴⁵⁾.

- التأثير بارتفاع المستوى الثقافي لدى سكان باريس: ((وأما أهل باريس فهم يختصون من بين الناس بذكاء العقل ودقة الفهم، وتعمق الذهن في الأمور عامة... وليسوا بالمقلدين في الأمور أصلاً بل يطلبون دائماً إدراك معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه حتى أن عامتهم أيضاً يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة))⁽⁴⁶⁾.

- الاعتناء بالعلم وجمع الكتب: ((وما رأينا ثم أن أهل الدولة من كثرة عدلهم واعتنائهم بالأمور جمعوا أنواع الكتب الموجودة على الأرض وجعلوا لها خزائن وحفظوها من كتب جميع الأجناس حتى أن كتب المسلمين المعتبرة التي قلّ نظيرها في بلاد المسلمين موجودة هناك وغيرها مما لا يحصى مع اختلاف فنونها))⁽⁴⁷⁾.

3- الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصرة البادية:

3-1 التعريف بصاحب الرحلة أحمد ولد قاضي:

الرحلة القادية في تبصرة فرنسا وتبصرة البادية لمؤلفها أحمد بن القاضي؛ الذي ينتمي إلى أولاد قاضي من عائلة البيهاتسيا، وهم من أصول أولاد مسعود، فخذ من قبيلة أولاد بوبكر، المعروفة باسم الأمهال، المنحدرين من بني نقريش والذين قدموا إلى افريقيا في القرن الخامس هجري، وبعد أربعة قرون استقروا فيها بعد وبصفة نهائية في وادي المينا، ضواحي معسكر بعد أن أقاموا مؤقتاً بين مليانة ومستغانم حيث آثارهم تدل عليهم في قصر الأمهال. كان لهذه القبيلة موقفاً سلبياً من الوجود العثماني، فقد حاربهم بشير ولد قاضي أحد شيوخها البارزين ومات في عام 1783 ودفن في مستغانم، ولهذا مع وصول الفرنسيين إلى الجزائر ساندتهم فتقرب لهم الاستعمار بإغرائهم بالمناصب والأوسمة وتقربوا له فنال ولد البشير منصب قراند الدوائر، وأحمد ولد قاضي الذي نحن بصدد دراسة رحلته تولى القيادة برتبة آغا في 11 نوفمبر 1843،

وانضم إلى الماريشال بيجو في 31 ماي 1844 في لالة مغنية ليشارك في معركة مويلحا ضد أولاد عبيد العنَّاوي الموالين للأمير عبد القادر⁽⁴⁸⁾.

أما رحلته إلى فرنسا؛ فقد أظهرته رجلا محافظا ومتحررا في نفس الوقت. فقد كان متمسكا بتقاليد أسرته وذويه من العرب الأجواد، وفي نفس الوقت نادى بالإصلاحات وأظهر تأثره بما شاهد في فرنسا من تقدم وما عاشه قومه من معاناة، وقد اغتتم فرصة وجوده بفرنسا وطالب برفع بعض المظالم عن مواطنيه وتطبيق بعض الإصلاحات⁽⁴⁹⁾.

3-2 مضمون الرحلة القادية:

رحلة حصلت سنة 1878، حين توجه مؤلفها رفقة بعض زملائه من أعيان البلاد وعلمائها لحضور المعرض الدولي في فرنسا، وقد نشرت تباعا في المبشر، ثم نشرت في كتاب صغير بعد ذلك⁽⁵⁰⁾. بدأ أحمد بن القاضي رحلته بقوله: ((الحمد لله الذي خلق الانسان من طين وصوره في أحسن تقويم، وشرفه بنور العقل فهده إلى صراط مستقيم، خلق الخلائق وأحصاهم عدد، وقسم الأرزاق بينهم فلم ينس أحدا... وبعد: لما تعلق القلب بزيارة فرنسا مرة ثالثة واشتاق النفس للتمتع برؤية تلك المدن العظيمة والأمصار، والمواطن والبساتين والديار، رجوت أن أكون مع من حضر، وقلت لعل غرس التمني يثمر، فكان الأمر بحول الله كذلك وحمدت الله على ذلك، ثم خطر ببالي بعد الرجوع إلى وطني أن أجمع بُنيَّة أذكر فيها بعض ما عاينته في السفر قصدا في انتفاع من لم يكن معنا حاضرا، لا أنا مباو بها ولا مفاخر))⁽⁵¹⁾، ويبدو مما كتبه أن هذه الرحلة هي الزيارة الثالثة إلى فرنسا.

قسّم رحلته المكتوبة إلى أربعة فصول كما جاء في مقدمتها؛ فالفصل الأوّل في محاسن فرنسا ومقابلة أعيان العرب مع أرباب الدولة، والفصل الثاني في عجائب معرض باريس وما يتعلق به، والفصل الثالث في سرد الجيوش وتنظيمها، والفصل الرابع في توديع أعيان العرب لفرنسا عند خروجهم منها وعرض حال لولاها، وقد سمى رحلته كما يقول صاحبها: ((وسميتها الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية))⁽⁵²⁾، وقد طبعت نسخة باللغة العربية وأخرى باللغة الفرنسية⁽⁵³⁾.

شرح في الفصل الأول للحديث عن محاسن الدولة الفرنسية وخص مدينة باريس فقال: ((ركبنا البحر من مرسى الجزائر في غرة شعبان المطابق لشهر غشت سنة 1878 في جماعة من أعيان العرب قاصدين المدينة العظمى باريس التي اجتمع فيها ما افتقر في غيرها من الحسن والإحسان، وضمّت ما تشتاق إليه الأنفس وترغب في سماعه الآذان، فاستقبلنا أهلها بالبشاشة الدالة على المروءة، ذو وجوه كغرة الصباح سميحة، وعقول ثابتة صحيحة... وبعد الاستراحة دعانا حضرة المرشال ماكماهون للحضور بشريف منزله فأكرمنا غاية الإكرام))⁽⁵⁴⁾ ثم استرسل في الحديث عن أهم الشخصيات السياسية والعسكرية التي قابلوها.

أما الفصل الثاني فكان حول عجائب معرض باريس الذي حضره سنة 1878 حيث وصف كل ما رآه وصفا دقيقا متعجبا مما لاحظته من تطوّر في الفنون والصناعات التي كانت يشاهدها في الجزائر يدويا وعندما سافر لفرنسا اكتشف الآلات واستخدام الإنسان للجهد العقلي بدل الجهد البدني في الإنتاج لمختلف الصنائع فيقول عن نسج الصوف: ((فترى الصوف مثلا في محل معملها تخرج خيوطا ثم يصير ملفا جيدا ومتوسطا وأدنى فتقول أين المشط وأين الغزل وأين المنسج وأين الخلالة والشيء المتناول باليد وترى أنواع الأقمشة من حرير وكتان بأنواع التطريز الغريب المذهب الملون وأصناف الحاشية العريضة والضيقة تخرج كثرة بأدنى كلفة ولا عمل يد))⁽⁵⁵⁾، وفي ختام الحديث عن هذا المعرض يذكر أحمد ولد قاضي: ((وكما أن هذا المعرض المبارك ينبئنا بلسان الحال عن زمن الراحة والخوض في ازدياد التجارة والفلاحة... هنيئا هنيئا لفرنسا التي هي أم الجزائر فقد زادها مر الليالي جدّة، وتقادم الأيام حسن شباب))⁽⁵⁶⁾.

وبالنسبة للفصل الثالث من الرحلة فقد خصصه لوصف استعراض عسكري لبعض الفرقة التي شاهدها ((ففي يوم الأحد الخامس عشر من سبتمبر تشرف البعض من أعيان العرب بالحضور في سرد العساكر وتدريبها، وتنظيمها على هيئة القتال شيء غريب وكان ذلك بفسحة في غاية الاتساع قرب باريس تسمى فانسان معدة لتمهير جنود...))⁽⁵⁷⁾، بينما الفصل الرابع كان حول توديع فرنسا وعرض حال لولاها؛ وهي جملة المطالب التي طالب بها

من أجل تحسين ظروف الجزائريين وسأذكر بعضها مختصرا في شكل عناصر حسب ما استنتجته من الرحلة:

- مساعدة العرب على التمدن وتزويدهم بالآلات المتطورة في الزراعة.
- تطبيق العدل وتعريف الجزائريين بالقوانين الفرنسية.
- نشر التعليم بين الجزائريين خصوصا وأن كثيرا منهم يرغب في ذلك حسب صاحب الرحلة.
- تمثيل الجزائريين في المجالس المنتخبة بانتخاب ممثلهم عن كل عمالة ممثل في ديوان المشورة من أجل تبليغ مطالبهم.

وفي ختام هذه الرحلة يكتب أحمد بن القاضي: ((هذا ما تعرضه على سادات فرنسا وجمهوريتها المسؤولين من الله عن رعيته لا محالة والمرجو منهم التأمل في جميع ما أشرنا به عليهم فالشريعة تسمع من أذنين والحق أحق أن يتبع وفي هذا القدر كفاية لمن وعى وسمع))⁽⁵⁸⁾ ، وقد نشرت هذه الرحلة على نفقة الحكومة العامة بالجزائر باللغتين الفرنسية والعربية.

3-3 مظاهر تأثير أحمد ولد القاضي بالحضارة الفرنسية:

من خلال قراءتنا للرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية لمسنا كثير من مظاهر التأثير بالحضارة الفرنسية، ولعل عنوان رحلته حمل ملخص ذلك التأثير، والذي نسرده في مجموعة عناصر أهمها:

- التباهي بما وصلت إليه فرنسا: ((كان العرب يظنون فرنسا عندما لطختها عيون السوء انتفاص شأها، فلما وقفنا بها وجدناها فدى في أعين الحاسدين وأنها أجل قدرا وأعظم قوة... فتمتعت أبصارنا بمشاهدة ما لم نكن نعرفه وتفقهنا بما كنا نجهله وليس الخبر كالعيان))⁽⁵⁹⁾.
- الاعتراف لفرنسا أنها أحييت علوم المسلمين واعتنائها بمختلف العلوم: ((وأحييت (أي فرنسا) علومها كانت لأسلافنا في القرون الماضية ثم كادت أن تندثر ولم يبق غير الاسم منها رغبة في لحوق المتأخر منا بالمتقدم منها فحق لنا أن نحمد الله تعالى على دولة من الله بما علينا))⁽⁶⁰⁾.
- التأثر بالسياسة التعليمية الفرنسية الموجهة لأبناء الأهالي المسلمين الجزائريين: ((ولسياسة الدولة جعلت لهم مدارس عند أبواب ديارهم كي لا تفرقهم عن أمهاتهم ومع تحريضنا لهم

ونصيحتنا إياهم أدخلنا بعقولهم ما ينتج للتلاميذ من ثمرة التعليم وقلنا لهم هل يستوي الأعمى والبصير والأبكم والناطق.... والآن لما أقبل وقت اكتسب فيه أبناءهم المناصب الشرعية والمخزنية كلٌّ منهم على قدر تحصيله للعلوم وتنوير عقله))⁽⁶¹⁾.

-دعوة الجزائريين لتغيير تفكيرهم اتجاه التعليم الفرنسي والانفتاح عليه: ((وقد كان العرب في الفارط عند فتح باب كل مدرسة وترغيب الدولة إياهم لهذه المكرمة تنكروا من ذلك ظنا منهم أنه مفسدة لدينهم حتى قال بعضهم إلقاء أنفسنا ونساءنا وأولادنا في البحر أهون علينا من تبديل ديننا وفراقنا مع أولادنا... ومع تحريضنا لهم ونصيحتنا إياهم أدخلنا بعقولهم ما ينتج للتلاميذ من ثمرة التعليم))⁽⁶²⁾.

-التأثر بنظام المعارض من خلال مشاهدته لمعرض باريس الذي يقول عنه وقد خصص له فصلا خاص به: ((ولما دخلنا دار المعرض الكائن بالمحل المسمى شاردومارس المجتمع فيه غرائب الصناعات الفائقة والاختراعات البدیعة الرائقة فوجدنا أمرا عجيبا... كل شيء يخرج بواسطة الآلات والحركات العقلية حتى القمح يوضع حبا في جهة ويصير دقيقا مغربلا صاف بالحركة في جهة ثم يخرج خبزا أو بشماتا للعسكر في جهة وهكذا في أسرع وقت والإنسان واقف وأغرب من هذا أن النار والماء ضدان والضدان لا يجتمعان فرأينا الثلج يستعمل من نار وماء بالآلات والحركات العقلية، فلو سمعنا بهذا لما صدقه العقل لكن ليس الخبر كالعيان فوقفنا باهتين، وقلت لنفسني اعتبر يا أحمد بن قاضي وأخبر من يعتبر))⁽⁶³⁾.

-التأثر بأفكار ومبادئ الثورة الفرنسية؛ حيث يقول عنها: ((فكلما مررنا بمدينة وقرية من مرسيليا إلى باريس إلا ورأينا على حيطاتها كتابة غليظة كقوائم الإبل يستخرجها الأعمش من بعيد فضلا عن صحيح البصر لم نعرف حقيقتها فسألنا عنها قيل لنا هي ثلاث كلمات.... الحرية والأخوة والمساواة، فيا لها من كلمات يحق أن تكتب بماء الذهب ويا ليت الناس يعرفون قدرها ويعلمون ما تضمنته من المعاني وحقيق أن الخير مجموع بما إن عمل بما، فلما استفسرناها وتأملناها ازدادت قلوبنا تعلقا بمحبة الدولة الفرنسية لما علمنا، من حريتنا نحن العرب ومساواتنا مع النجباء أولاد فرنسا وإن كنا لا نساويهم في العلوم والخدمة فإننا نساويهم في الصدق والثبات

(كذا) والحمد لله قد ثبت عند المسلمين اعتناء الفرنسيين بهم كاعتنائهم بأولادهم كيف لا وقد طال ما زرعت الدولة من المحامد بأرضهم))⁽⁶⁴⁾.

-التعجب مما وصلت إليه فرنسا من التقدم في بعض العلوم والصناعات: ((ومن جملة ما رأينا من أدنى الغرائب استخراج أفراس الطيور من غير تحضين فتراهم يجلبون أنواع البيض من كل بلد ويعالج بالحرارة المناسبة لأمهاته حتى يخرج أفراسا زاغدة طالبة للمعاش))⁽⁶⁵⁾، وفي ختام الحديث عن معرض باريس يقول ابن القاضي: ((هذا شيء غريب لا سبيل لحصره وإنما اختصرنا بعضه ليعتبر العاقل ما يتوصل إليه الإنس بنور العقل وإلا فما هو إلا ما قالت الأجناس هذا حمل لا يطاق على حمله غير أنه يا أسفا مع اطلاعنا على تلك العجائب التي يعجز الإنسان على وصفها لم ندرك حقيقة الكثير منها))⁽⁶⁶⁾.

-حسن التنظيم والتسيير: ((ومما يستغرب أن مع اختلاف هذه الأقسام أي من يقصدون معرض باريس من داخل وخارج فرنسا- والملايين من الخلق لا يسمع لهم دوي ولا غوغاء، فهذه ثمرة ثلاث كلمات: الحرية، الأخوة، المساواة))⁽⁶⁷⁾، ومن شدة التأثير بما شاهده ورآه أحمد ولد قاضي أنه تأثر عند خروجه من فرنسا أكثر من تأثره عند خروجه من الجزائر: ((هذا ولما آن وقت الرحيل جرعنا كأس الفراق بعد حلاوة التلاق، ولم يصبنا يوم خروجنا مثل ما أصابنا يوم الخروج من فرنسا فانصرفنا والعيون ملتفتة إليها وسفرنا والقلب مقيم بها))⁽⁶⁸⁾.

خاتمة:

هذه بعض مظاهر تأثر الرحالة الجزائريين إلى فرنسا وما وجدوه من التطور الذي لم يعهدوه ببلادهم الجزائر في تلك المرحلة التاريخية ولم يعيشه الجزائريون، ولهذا فتلك الرحلات الرسمية والعلمية هدفها التغيير في الذهنية الجزائرية اتجاه الاستعمار الفرنسي، ولهذا أشرفت الإدارة الاستعمارية على طباعتها ونشرها. كما تعد تلك الرحلات المكتوبة والمطبوعة مصدرا مهما لكتابة تاريخ النخبة الجزائرية وعلاقتها بالاستعمار في الجزائر.

كان الهدف من كتابة هذه الرحلات هو إبراز محاسن الاستعمار وواقع الفرنسيين من طرف النخبة الجزائرية، لكن حقيقة الاستعمار يعرفها الجزائريون من خلال المجازر الدموية

وضحايا المقاومات الشعبية وسياسة التنكيل والتضييق والاعتقالات ومصادرة الممتلكات والإرغام على الهجرة الجماعية.

بيّنت هذه الرحلات ازدواجية السياسة الاستعمارية في التعامل مع النخبة الجزائرية؛ فالمؤيدون قربتهم الإدارة الاستعمارية ومنحتهم امتيازات، وبحضرون الاحتفالات سعيا منها لتوظيف أقدامهم في خدمة الاستعمار، بينما المعارضون حاربتهم ومصادرة ممتلكاتهم.

الهوامش:

- (1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج06، دار الغرب الاسلامي، بيروت-لبنان، ط01، 1998، ص201.
- (2) المرجع نفسه، ص201.
- (3) علي تابلت: خمس رحلات جزائرية إلى باريز، منشورات جامعة الجزائر، الجزائر، د.ط، 2012، ص13.
- (4) المرجع نفسه، ص13.
- (5) المرجع نفسه، ص39-40.
- (6) المرجع نفسه، ص39.
- (7) علي تابلت: خمس رحلات جزائرية إلى باريز، المرجع السابق، ص40.
- (8) محمد السعيد بن علي الشريف: الرحلة الخيرية إلى باريس 1852، منشور في مجموع: علي تابلت، خمس رحلات جزائرية إلى باريز، المرجع السابق، ص48.
- (9) محمد السعيد ابن علي الشريف: الرحلة الخيرية إلى باريس 1852، المصدر السابق، ص47.
- (10) المصدر نفسه، ص53.
- (11) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج07، المرجع السابق، ص477.
- (12) المرجع نفسه، ص478.
- (13) علي تابلت: خمس رحلات جزائرية إلى باريز، المرجع السابق، ص123.
- (14) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج06، المرجع السابق، ص201-202.
- (15) جمال قنان: التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2009، ص19.
- (16) المرجع نفسه، ص20-21.

- (17) مُجَّد السعيد ابن زكري الزواوي: أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1903، ص 10.
- (18) جمال قنان: التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، المرجع السابق، ص 111.
- (19) عبد القادر جغلول: تاريخ الجزائر الحديث؛ دراسة سوسيوولوجية، تر: فيصل عباس، دار الحداثة وديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط03، 1983، ص245.
- (20) جمال قنان: التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، المرجع السابق، ص98.
- (21) شارل روبري أجرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص 526-525.
- (22) المرجع نفسه، ص 558.
- (23) مصطفى زايد: التنمية الاجتماعية ونظام التعليم الرسمي في الجزائر (1962-1980)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص109.
- (24) محفوظ سماتي: الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها، تر: مُجَّد الصغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، دار دحلب، الجزائر، 2007، ص 206.
- (25) شارل روبري أجرون: الجزائر المسلمون وفرنسا، ج2، المرجع السابق، ص 575.
- (26) مصطفى (زايد)، المرجع السابق، ص 109.
- (27) حول ترجمته ينظر كذلك: Marthe et Edmond Gouvion , Kitab Aàayne el- Marhariba, Prévence d'Alger, 1920 , P11-13.
- (28) الزبير سيف الإسلام: تاريخ الصحافة في الجزائر (رواد الصحافة الجزائرية)، مطبعة دار الشعب، القاهرة- مصر، ط01، 1981، ص28.
- (29) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج07، المرجع السابق، ص474.
- (30) Si Sliman ben siam : relation du voyage en France, imprimerie du gouvernement, Alger, 1852, P01.
- (31) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج07، المرجع السابق، ص475.
- (32) الزبير سيف الاسلام: تاريخ الصحافة في الجزائر (رواد الصحافة الجزائرية)، المرجع السابق، ص15.
- (33) Si Sliman ben siam, relation du voyage en France, op.cit, P03.
- (34) IBID, P06.

- (35) IBID, P7-8.
- (36) IBID, P11.
- (37) Si Sliman ben siam, relation du voyage en France, op.cit, P01.
- (38) IBID, P04.
- (39) IBID, P04.
- (40) IBID, P05.
- (41) Si Sliman ben siam, relation du voyage en France, op.cit, P06.
- (42) IBID, P07.
- (43) IBID, P7-8.
- (44) IBID, P8-9.
- (45) Si Sliman ben siam, relation du voyage en France, op.cit, P 10.
- (46) IBID, P11-12.
- (47) IBID, P19-20.
- (48) علي تابلت، خمس رحلات جزائرية إلى باريز، المرجع السابق، ص 73-74.
- (49) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج07، المرجع السابق، ص474.
- (50) المرجع نفسه، ص473.
- (51) أحمد ولد قاضي: الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، منشورات الحكومة العامة، الجزائر، 1878، ص3-4.
- (52) المصدر نفسه، ص05.
- (53) Si Ahmed ould kadi: impressions du voyage A Paris, Alger, 1878.
- (54) أحمد ولد قاضي: الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، المصدر السابق، ص5-6.
- (55) المصدر نفسه، ص13.
- (56) المصدر نفسه، ص23.
- (57) المصدر نفسه، ص25-26.
- (58) أحمد ولد قاضي: الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، المصدر السابق، ص46-47.
- (59) المصدر نفسه، ص7-8.

- (60) المصدر نفسه، ص 09.
- (61) المصدر نفسه، ص 10-11.
- (62) أحمد ولد قاضي: الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، المصدر السابق، ص 10.
- (63) المصدر نفسه، ص 12-15.
- (64) المصدر نفسه، ص 8-9.
- (65) المصدر نفسه، ص 18.
- (66) أحمد ولد قاضي: الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، المصدر السابق، ص 20-21.
- (67) المصدر نفسه، ص 23.
- (68) المصدر نفسه، ص 32-33.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر والمراجع باللغة العربية

- 1- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 06، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط 01، 1998.
- 2- أحمد ولد قاضي: الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، منشورات الحكومة العامة، الجزائر، 1878.
- 3- الزبير سيف الإسلام: تاريخ الصحافة في الجزائر (رواد الصحافة الجزائرية)، مطبعة دار الشعب، القاهرة- مصر، ط 01، 1981.
- 4- جمال قنان: التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2009.
- 5- شارل رويبر أجرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا، ج 2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007.
- 6- عبد القادر جغلون: تاريخ الجزائر الحديث؛ دراسة سوسيولوجية، تر: فيصل عباس، ط 03، دار الحداثة وديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- 7- علي تابلت: خمس رحلات جزائرية إلى باريز، منشورات جامعة الجزائر، الجزائر، 2012.
- 8- محفوظ سماتي: الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها، تر: مُجَّد الصغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، دار دحلب، الجزائر، 2007.
- 9- مُجَّد السعيد ابن زكري الزواوي: أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1903.

- 10 - محمد السعيد بن علي الشريف: الرحلة الخيرية إلى باريس 1852، منشور في مجموع: علي تابليت، خمس رحلات جزائرية إلى باريز، منشورات جامعة الجزائر، الجزائر، 2012.
- 11 - مصطفى زايد: التنمية الاجتماعية ونظام التعليم الرسمي في الجزائر (1962-1980)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

ثانيا: المصادر والمراجع باللغة الفرنسية

- 12- Marthe et Edmond Gouvion, Kitab Aàyan el-Marhariba, Prévence d'Alger, 1920.
- 13- Si Ahmed ould kadi, impressions du voyage A Paris, Alger, 1878.
- 14- Si Sliman ben siam, relation du voyage en France, imprimerie du gouvernement, Alger, 1852.